صورة من صور الحياة القاسية

الأطفال المشردون

ترافع المحامي عن المتهم ، بما أوتي من فصاحة لسان ، وقوة برهان ، واختلت المحكمة للمداولة . ثم عادت الى قاعة الجلسة ، وأعلنت حكمها وهو يقضي بإحالة الأوراق الى مفتي الديار ، ومعنى ذلك الحكم على المتهم بالاعدام شنقا ، وفقا للقوانين المصرية .

وخرج الجند بالمحكوم عليه ، وهو أصفر الوجه ، زائغ البصر ، لكنه ثبت الجنان ، وكان يسير مدفوعا بغلظة الحراس وفظاظتهم ، فهذا يدفعه ، وذاك يلكمه ، وآخر يشتمه ، وغيره يلكزه ، وهو مستسلم لهم ، لا يبدي مدافعة أو ممانعة ، كأنه فقد الحس والشعور ، والناس يبتعدون عنه ، ويفرون من وجهه ، ويتنحون بسرعة عن طريقه .

وكان المتهم شابا في الرابعة والعشرين من عمره ، طويل القامة ، نحيل الجسم ، قوي البنية ، وسيم المحيا ، لولا ما انطبع على أساريره من يبوسة وجمود ، مما جعل نظراته حادة قاسية ، لا تنم عن عطف ، ولا تشف عن حنان .

وعندما وصل الى باب المحافظة الخارجي المطل على الميدان رفض فجأة لا يتحرك من مكانه على الرغم من دفع الجند ولكزهم ، وأخذ يحملق بعينيه ، وقد اعترته رعدة شديدة اهتز لها كل جسمه ، وظل يتطلع إلى رهط من الصبية والصبايا تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والعاشرة ، وهم يتزاحمون حول صندوق القمامات والنفايات ، ويتدافعون بالأيدي والمناكب لالتقاط ما يجدونه فيه من كسرة خبز قذرة ، أو عظمة عليها مسحة من اللحم ، أو قشرة برتقال عالق بها بعض اللب ، أو قطعة يطاطس علتها الأوساخ والأدران ، فيلتقمونها بشراهة ، ويلوكونها بشهية ، ويزدردونها بلذة ، كأنهم يأكلون أطايب الطعام ويتذوقون أشهى المآكل ، وهم يزاحمون الهررة والكلاب التي تبحث مثلهم فيها تبعثر من الزبالة ويسلبونها ما تعثر عليه من الفتات ، وبقايا المأكولات ، ويصخبون ويضجون ويضحكون مع ما بهم من جوع ، ومسغبة ، وما هم فيه من شقاء وبؤس .

وكانوا عراة الرؤوس ، حفاة الأقدام ، لا يستر أجسادهم غير ثياب ممزقة بالية تبدو من خلالها عورات الكثيرين منهم ، وكانت وجوههم ذابلة ليس فيها أثر من نضارة الطفولة يعلوها شحوب واصفرار ، وتتخللها أخاديد من القذارة والوساخة ، وأعينهم مطفأة النور لا تنم عن ذكاء ولا فهم ، كأنها أعين حيوانات دنيئة ، وأجسامهم نحيفة اللحم ، لم يبق منها الطوى سوى جلد على عظم .

وقف المحكوم عليه يتأمل هذا المنظر المتجلي أمامه ، وهو شارد الفكر ، ذاهل العقل ، حتى أخرجته من سباته ركلة شديدة من حذاء الجندي الثقيل في ردفه كادت تلقيه أرضاً ، لكنه لم يستدر ولم يهتم بمعرفة من ضربه من الحرّاس ، لاعتياده على مثل هذه المعاملة من جميع الجنود ، بل رفع يديه المصفدتين بالحديد ومسح بظهر كفه دمعة ترقرقت في عينه ، ثم لوى بصره عن الصبية ، وسار متوهاً بالجند وباقي المسجونين .

وعندما تم تركيب العربة التي ستقله ورفاقه إلى السجن ، إقترب منه زميل له قد تمرّست نفسه بالإجرام ، وارتاضت على أنواع المنكرات وضروب الآثام ، حتى صلدت عواطفه ، وتحجّرت مشاعره ، وهو مندهل من بكائه ، لعلمه برباطة جأشه ، وقوّة جنانه ، وهمس في أذنه قائلاً : « إيه يا ... ، جد قلبك ، فالسجن مأوى الرجال ، والمشنقة مرجيحة الأبطال ». فأجابه الشاب بصوت مختنق من التأثر : « سيان عندي حياتي أو مماتي ، وأنا أفضل الرحيل من هذه الدنيا التي لم تدر لي سوى التعس والشقاء ، ولا تظن أن بكائي على نعيي ، بل على هؤلاء الأطفال الذين يتزاحمون حول صندوق القاذورات ليجدوا فيه من النفايات ما يسدون به جوعهم ، فقد أشجتني رؤيتهم ، وأعادت إلى ذاكرتي أيام طفولتي بمرارتها وعلقمها ، وسأقص عليك ما كابدته في حياتي القصيرة من العذابات والآلام عندما نجلس في العربة لتعيه من بعدي ، ويكون عبرة وعظة لسواي . من الذين يجنون على أبنائهم ، دون أن يكون لهم ضمير أو وازع .

ولما أخذ السجناء أمكنتهم في العربة لبث مجد برهة مستغرقاً في أفكاره ، ثم زفر زفرة خرجت من أعماق قلبه واستهل حديثه قائلاً : ما أتعس الطفل الذي يشب بعيداً عن حنوّ أمه وعطف أبيه ، وما أشقاه إذا كان والداه من الشلّة العتاة المجردين من كل عاطفة الأبوّة ، فقد شاءت صروف الدهر أن لا يعي ذهني ، حالما بدأ يحس ويشعر ، إلا الشقاء الذي ليس بعده شقاء ، فمنذ ما فتحت عيني في هذا الوجود ، وأنا لم أتمم بعد الثالثة من عمري ، لم أر لوالدي أثراً بل ألفيت نفسي عند امرأة عجوز ، شرسة الطباع ، شكسة الخلق ، لا قلب لها يرق ، ولا فؤاد يرحم ، فقد طلق أبي أمي وهي

حامل بي ، وذهب إلى حيث لا يدري أحد مكانه ، ولم يكد ناظري يكتحل بنور هذه الحياة حتى تزوجت والدتي سواه ، فكنت حجر عثرة في سبيل هنائها ، لأن زوجها لم يكن يطيق رؤيتي ، فكان يسيء إليّ وينهال عليّ ضرباً بدون سبب ، وأمي تدافع عني جهد طاقتها ، حتى إذا ضاق ذرعاً بي خيّرها بين نبذه لها أو تركها إياي ، ففضلت الانفصال عني ، وأسلمتني إلى هذه المرأة العجوز لتقوم بتربيتي لقاء أجرة معينة تتناولها شهرياً ، وأنا لم أزل بعد في الثانية من عمري . ولكن ما هي إلاّ شهور حتى غابت أمي عن نظري وتركتني بين يدي هذه العجوز التي عندما رأت انقطاع المال عنها شرعت تعاملني أسوأ معاملة ، وتضربني ضرباً أليماً ، ولا تطعمني في النهار كله إلاّ كسرة خبز يابسة تكاد لا تكفي للإبقاء عليّ ، ولا تكسوني إلاّ بقطع ممزقة من بقايا ثيابها الخلقة تلفقها كيفما اتفق ، وتحملها على جسمي الهزيل ، فلا تمنع عني برداً ولا تستر عورتي ، ولا تقيني من حرارة الصيف ، ولا من صبارة الشتاء .

ولما قوي ساقاي على حملي علمتني التسول وجمع أعقاب السجائر وبيعها ، ودربتني على سرقة ما تقع عليه يدي وكانت تلقنني صباحاً مشيعة اياي بالضرب ومطالبة مني أن أعود إليها مساء وفي يدي لا أقل من ربع ريال . والويل لي إذا رجعت ولم أستتم هذه الجزية المفروضة لأنها تنهال ضرباً بالعصا على جسمي العاري النحيف حتى تحدث فيه آثاراً دامية ، فيغمى عليّ من الألم ، وتلقيني في ركن الغرفة السوداء بعد ما تجردني من النقود التي جمعتها ، وتجلس على فراشها وبيدها العصا تتطلع إليّ . كما يتطلع الوحش إلى فريسته الدامية ، معتزمة إعادة الكرة حالما أفيق من غيبوبتي . فكنت أئن وأتأوه طويلاً وأنا في غشيتي حتى إذا عاد إليّ حسي وشعوري أتطلع إليها بطرف خفي ، فإذا رأيتها ترقبني ظللت في مكاني لا أتحرك إلى أن يغلب عليّ النعاس والتعب والآلام ، فأنام متوسداً الأرض الرطبة ، نوماً متقطعاً يتخلله الفزع والهلع ، والهواجس والوساوس .

وحالما يتنفس الفجر توقظني بالرفس واللكم ، وتلقي إليّ بكسرة الخبز كما تلقيها إلى كلب ، وتشيعني بالتهديد والوعيد ، فأخرج لمزاولة عملي ، وأنا في حالة تتقطع لها نياط القلب من الضعف والهزال ، والجوع والعري . حتى اذا كان ذات يوم ، وقد غادرت الحجرة عند بزوغ الشمس ، أتطلب ما أسد به جشعها ، دفعاً لأذاها ، وأنا متأبط قطعة الخبز اليابسة ، متزمل ببقايا ثياب لم تترك الأيام منها غير مزق تتدلى على جسمي ، فيبدو منها صدري الهزيل الذي تعد أضلاعه ، ويظهر من تحتها ذراعاي الرفيعان الملتصق جلدهما بعظمها ، وساقاي الدقيقتان اللتان تحملاني مترنحتين ، مررت بقصر منيف تحيط به حديقة

غناء ، في مدخلها قبالة السلم الرخامي كشك صغير من الخشب ربض فيه كلب ضخم الجثة هائل المنظر مربوط بجنزير ، وقد انحدر عبد أسود حاملاً طبقاً فيه لبن مغلي يتصاعد منه البخار فوضعه أمامه وقفل راجعاً ، فغمس الكلب في اللبن منخريه بحذر ، ثم أقعى على ذنبه انتظاراً ريثما يبرد اللبن .

وكان الوقت شتاء ، والطقس بارداً زمهريراً ، يقضقض من قرّه الجسم المدثر بالصوف والفراء ، فكيف بالعاري مثل جسمي الذي لا تستر أجزاء منه سوى أطمار بالية مهلهلة ، فتطلعت الى طبق اللبن وقد جحظت عيناي ، وابتلع لساني ، وجرى لعابي في فمي على الرغم من يبوسة حلقي الذي لم يذق في حياته اللبن طعماً ، فطاش عقلي ، وفقدت اتزاني ، واندفعت من باب الحديقة المفتوح ، وأسرعت الى الطبق ، فهجم عليّ الكلب الكاسر وأنشب أنيابه في كتفي العاري ، لكني لم أعبأ بالألم من فرط الجوع والبرد ، وجثوت على ركبتيّ وأمسكت الطبق بكلتا يديّ ورفعته الى فمي وطفقت أعب اللبن عبّاً غير شاعر بسخونته . فلما رأى الكلب لهفتي وجوعي ، فطن بغريزته إلى حالتي البائسة ، فتخلت ازمة قلبه ، وارتدّ عني ووقف بعيداً وهو يمصمص لي بذنبه ، ويتطلع إليّ بعطف وحنان ، وقد أبرقت عيناه الصغيرتان المنوهتان ذكاء ، كأنه يقول لي : « اشرب فلا خوف عليك ، لانك أحوج مني إلى ما يقيتك ويدفئك » .

وكأني بالحيوان أرق قلباً من الانسان ، إذ بينما أنا مقبل بكليتي على اللبن أتجرّعه بشراهة متناهية ، سمعت من ورائي صوتاً يصيح « ياحرامي » وشعرت بضربة سوط شديدة وقعت على أم رأسي فسقط الطبق من يدي وانكفأت على وجهي من شدة الألم ، وأخذ الدم يتدفق بغزارة من جرحي .

وكان الضارب شاباً في العشرين من عمره ، أنيق الملبس ، يتدثر بمعطف ثمين من الجوخ ، تحته بزة أفرنجية من غالي النسيج ، وفي يديه قفاز من الجلد ، وقد قبض على سوط مذهب الرأس ، فانحنى فوقي وقال بحدّة : « أتسرق أيها الوغد وأنت في هذه السن » وهمّ بضربي ثانية ، لكن الكلب الذي أنف من هذا الظلم هرّ هريراً قويّاً ، وهجم على صاحبه مكشراً عن أنيابه ، وحال بينه وبيني ، فصاح الشاب مغضباً : « ويحك يا بوبي أتهرّ عليّ ! » لكن الكلب لم يبال به ، بل لبث في مكانه ومال عليّ وشرع يلحس جرحي بلسانه ، كأنه يؤاسيني مستغفراً مني عن الجور الذي ألحقه بي سيده . فنادى الشاب خدمه الذين لبوه جماعة ، وأمرهم بطرحي خارجاً ، وهو ينهى عنهم باللائمة لتركهم باب الحديقة مفتوحاً ، فحملني اثنان منهم من يديّ ورجليّ وألقوني في الشارع وأغلقوا البوابة

الحديدية ، فلزمت مكاني دون أن أجد في نفسي قوة على مبارحته ، وكان النزيف قد انقطع غير أن الألم ما زال شديداً ، فأسندت رأسي الى جدار لكنهم ما عتمت أن هويت على الأرض ، فالتففت على نفسي وأنا ألتمس الراحة مما أعانيه ، ولكن بدون جدوى ، لأن الألم كان يزداد من دقيقة الى أخرى .

وكانت الشمس قد بدأت تشرق ، وأشعتها الشاحبة تنسل من بين السحب المغطية وجه السماء ، فشعرت بدفء خفيف تحت لعابها واستسلمت للكرى .

وما هي إلا فترة من الزمن حتى أيقظتني من سباتي رفسة عنيفة من حذاء ثقيل اهتز لها كل جسمي ، فأفقت مذعوراً وتطلعت فيما حولي فألفيت جندي الدورية واقفاً ينتهرني بالسباب والشتائم طالباً مني السير ، وعدم « شغل » الطريق ، فصدعت للأمر ونهضت متحاملاً على نفسي ، وطفقت أسير مترنحاً كالشارب الثمل ، وأنا اعتمد الجدار بيدي لكي لا أهوي الى الأرض ، حتى إذا مررت بصيدلية التمست من صاحبها الرأفة بحالي وضمد جرحي ، فطردني شر طرد .

تابعت سيري وأنا أدلف ، وقد حبست نفسي عن الجزع ، لاستمد من عزيمتي قوة تساعدني على التطواف ، حتى أصل الى مكان خرب آوي اليه ، فأبصرت على مدى قريب منزلاً متهدماً قد زال سقفه وبقيت آثار جدرانه فهرولت اليه بقدر ما تسمح به حالتي وانسللت بين أحجاره حتى صعدت ركناً قد أنارته أشعة الشمس الشاحبة فسحبت اليه ، وتمددت فيه ، وأنا أتداخل في بعضي وألتف بأطماري طلباً لدفئه ، وما لبث النوم أن ران على أجفاني فاستسلمت اليه لأجد فيه مخففاً لآلامي وأوصابي .

وشاءت الأقدار ألا ترحمني ولو فترة من الزمن ، فأفقت مرعوباً على تساقط المطر ، ووجدت السماء قد اكفهر لونها ، وفاضت ميازيبها ، والرعد يلعلع في الفضاء ، والهواء يهب بعنف وشدة ، فبرحت بالنهوض وقد ابتلت أطماري ، والتصقت بجسمي ، ومررت وأنا اشدد في عدوي باحثاً عن ملجأ يقيني عادية المطر المنهمر بغزارة ، والتجأت الى سقف يبرز من عمارة فاستترت به من وابل الماء ، ولبثت واقفاً أرقب المارة ، وأنا انتفض من البرد ، وأترنح من الألم حتى انقطعت خيوط الغيث ، وانقشعت الغيوم ، وبدت الشمس بهيَّة بهاء ، فازدحمت الشوارع بالسابلة ، وجلهم من الصبية ، وهم يسيرون أفواجاً حاملين الحلوى واللعب وقد ارتدوا حللاً جديدة زاهية ، وركب بعضهم العربات والسيارات وهم يغنون ويصفقون ، فسألت صبياً عابراً عن حالة هؤلاء ، وعن سبب خروجهم في أبهى الثياب وأجلها ، فأجابني بأنهم يحتفلون بعيد الفطر .

مر عيد الفطر ؟ وما هو هذا العيد ؟ لم أسمع بعد بالأعياد ولم أحتفل بها قط ، لأن كل حياتي ظلام في ظلام . لم يبدُ فيها بصيص من الضوء ، ولا ذبالةٌ من الفرح والسرور . فالأعياد لا تعرفني ولا أعرفها ، فهي بمنأى مني ، وأنا بمعزل عنها .

ومرّ بي فوجٌ من الأطفال وهم فرحون يأكلون الحلوى والكعك ، فمددت يدي إليهم مستجدياً لأن الجوع أخذ يفرس معدتي ، علّني أذوق طعم الحلوى والكعك اللتين لم أعرف بعد لهما مذاقاً ، فتفرّسوا في وجهي الشاحب النحيل ، وقد رسمت عليه الأقذار والدماء خطوطاً وتعاريج ، وتأملوا في عينيّ اللتين تشعان ببريق الحمى ، وتطلعوا إلى ثيابي الممزّق المبللة ، والملتصقة بجسمي ، دون أن تستر عورتي ، ثمّ نظر بعضهم إلى بعض هلعين وجلين ، وأطلقوا سيقانهم للريح ، كأنهم سرب غزلان يفر من وحش مفترس .

لم أكن أعرف بعد أن ثمة إلاهاً ، ولا أدري كنه الحياة ، ولا سر الوجود ، وكل ما أشعر به وتتشنج أني موجود ، وإني أتعذب وأتألم ، بينما غيري من الأطفال ينعمون ويفرحون ، ويعيشون مرفهين مدللين ، ومع ذلك رفعت عينيّ نحو السماء بحركة لا أدري مبعثها ، وأنزلتهما الى الأرض وأنا أشعر بإجحاف وظلم ، لا أحيط بأسبابهما ، ولا أدرك سرهما ، لكن إحساسي الذي تنبه قبل أوانه جعلني أسائل نفسي عن السبب الذي من أجله يوجد صبيان في رخاء العيش وليانه ، يسارع إليهم الهناء ، وتكلأهم السعادة بعنايتها ، وتؤاتيهم الدنيا على رغائبهم ، وآخرون في سنهم ، قد تنكرت لهم الحياة ، وتجهّم لهم وجه الزمن ، فذاقوا من شقاء العيش ، ومرارة الوجود ما يكاد يدك صرح حياتهم ، ويودي بحياتهم الغضة اليافعة .

سؤال جهدت نفسي في تعرّف سببه ، ومرّ أفرغت ما في وسعي لأدرك له حلاً ، لكن عقلي الصغير القاصر تضاءل دون ذلك .

وكانت شوكة الجوع يشتد وخزها في معدتي ، وأنا أدافعها وأدفع ألم كتفي وجرح رأسي بالتلهي في تصفح الوجوه ، وإجالة الطرف فيما يدور حولي ، فأبصرت بجانبي حانة جلس فيها أناس من جميع الأجناس ، الى موائد عليها من الكؤوس وأصناف المآكل ما زاد في جوعي وألمي ، فتفقدت جيبي لعلي أعثر فيه على فتات من الخبز لكني لم أظفر بفتيتة واحدة ، لأن جيبي كان مخرقاً كالمصفاة ، لا يستقر فيه شيء مهما صغر ودقّ حجمه ، وقد أضعت كسرة الخبز التي كنت متأبطها في الحديقة عند عراكي مع الكلب .

وقفت عند باب الحانة أنظر إلى من فيها وقد أججت رؤية الطعام نار الطوى في جوفي وزادتها استعاراً ، وصحت عزيمتي على التسلل الى الداخل عساي أصيب ما أمسك به رمقي ،

وتنقلت بين الموائد متطلعاً بشراهة ولهفة ، إلى ما أبقاه عنصر الخمر في الطباق من القطع والفتات ، حتى إذا انتهيت الى مائدة قد فرغ الجالسون من أمرها وغادروها ، مددت يدي المرتجفة الهزيلة الى ما رسب في الصحون من الطعام وأسرعت به الى فمي ، وأن أزدرد دون مضغ ، فانهال الموجودون هناك عليّ بالزجر والنهر ، وشرع بعضهم ينادي خدم الحانة ليقصوني من حضرتهم ، وليبعدوني عنهم لأن منظري المزري القذر قد سبب لهم تقززاً ، وعكر عليهم صفو الهناء في احتساء الخمر وشرب المسكر ، فأقبل الخدم وطردوني بالدفع واللكم وألقوني خارجاً ، فتلمست طريقي وأنا أسير وجسمي يهتز كقصبة مرضوضة ، وساقاي لا تقويان على حملي ، حتى إذا وصلت الى منعطف زقاق ، شعرت بأن الأرض تدور بي ، فسقطت على وجهي وغبت من الوجود .

مكثت في غشيتي مدة غير وجيزة ، حتى أفقت على أصوات تناديني ، وأيدٍ تحركني ، فظننت لأول وهلة أن العجوز توقظني حسب عادتها ، فنهضت مسرعاً خشية أن ينالني اذاها إذا تباطأت ، غير أن الالم ألقى بي ثانية على الأرض ، فطفقت أتفرّس في الوجوه الماثلة عليّ والمحدقة بي ، فوجدتها وجوه صبيان من صنوي وشاكلتي ، فثيابهم رثة بالية ، وسحنتهم غبراء شاحبة ، وقذارتهم تماثل قذارتي ، وأعمارهم تتراوح ما بين الخامسة والعاشرة ، وهم مقبلون عليّ بوجوههم ، فرحون بلقياي ، جذلون بما سيخصونني به من العطاء والمنحة ، أنا البائس المسكين مثلهم ، إذ لا يعرف كنه الفقر إلا من ذاق جرعه ألم الجوع ، وتحمل جسمه العاري حر الصيف وبرد الشتاء ، وشمر حياؤه عذلة السؤال ، وانكسرت نفسه تحت وطأة الضعة والهوان .

جلس الصبية حولي عند ما بدا لهم عجزي عن النهوض ، واستطلعوني أمري ، فقصصت عليهم تاريخ حياتي القصير ، المفعم بالرزايا ، المليء بالآلام ، وهم سامعون مني ، مصغون اليّ ، حتى اذ استفرغت ما عندي ، رثوا لحالي ، وطيبوا خاطري ، وناولني أحدهم برتقالة أكلتها بجزء من قشرتها لشدة لهفتي على تسكين ألم جوعي ، وأروني نقوداً فضية كانت في جيب أكبرهم سناً ، وأكلا شيئاً ملفوفاً بورق ، ثم حملوني الى الصيدلية التي قصدتها صباحاً فطردني صاحبها ، وأعطوه ربع ريال وطلبوا منه تنبيهي وضمد جروحي ، فلبى الأمر هاشاً باشاً عندما قبضت يده على الثمن ، وقدم لي كوبة فيها أدوية منعشة ، وغسل جرح رأسي ، وعصبة كتفي وضمدها ، فانتعشت نفسي وودّت اليّ روحي ، وقويت رجلاي على حملي ، وسرت مع رفاقي الذين اعتزموا احياء العيد أسوة بسواهم من الأطفال الاغنياء المترفين ، فلئن أبت عليهم الانسانية أن تدخل السرور على

قلوبهم طوعاً ، في ذلك اليوم ، فقد أخذوا منها قسراً وبالسرقة ما ساعدهم على نيل أمنيتهم وادراك مراميهم .

انتحينا جانب حديقة خربة ، لم يبقَ منها غير سور متهدم ، يحيط ببعض أشجار متفرقة هنا وهناك ، وافترشنا الغبراء ، وبسطنا طعامنا المؤلف من خبز بلدي وسمك مشوي وطعمية « وحلاوة طحينية » ، على قماط من ورق الصحف القديمة ، وأكلنا هنيئاً وشربنا من حفر في أرض الحديقة ملأى بماء المطر ، وبعد ما خلع عليَّ وملاني من ثيابهم ما كساني بعض الشيء وستر من عورتي ، تمددنا على الأرض ، ونمنا نوماً هادئاً حتى الأصيل

وعند ما أفقنا جلسنا حلقة تتسامر ، وقد سرى شيء بعض ما كان بي ، فأقبلت بكليتي عليهم ، وأنا ممتن لهم ، مغتبط بصحبتهم . فعرضوا عليَّ مفارقة العجوز التي تسومني العذاب الأليم ، والانضمام الى زمرتهم ، فهم يعملون لحساب شخص ، وان يكن أقل شراسة ، وأخف جشعاً من تلك ، لكنه شديد الوطأة عليهم ، فكل منهم ينقده جعلاً معيناً مساء كل يوم عند أوبته ، غير أن الحال ستتغير منذ الآن ، لأنهم أصبحوا عصبة باتفاقهم مع أحداث على غطهم ، أكبر منهم سناً ، قد تحرروا من ربقة محتكريهم ، وغدوا يستغلون « مواهبهم » لانفسهم ، وهم ذوو سطوة وبأس في عالم الاجرام الخفي ، فاذا سولت للسيطر عليهم نفسه الشريرة أن يداوم في ارهاقهم وظلمهم ليكونن ذلك وبالاً سريعاً عليه ، إذ لا يلبث رفاقهم الكبار أن يلتقموا منه ثم التتام ، بعد ما يعلنونه بذلك ، فلهذا كله يرى أولئك الأطفال أن أنضم اليهم لترفه حالي ، وينعم بالي .

وقد وقع كلامهم من نفسي موقعاً حسناً ، فأجبتهم الى ما يريدون وأنا جذل فرح وعشت معهم مقاسماً إياهم ضراءهم ، اذ لم يكن لهم سراء ، لأن تبدل السيد لم يبدل البؤس ولم يغيره ، وكل ما في الأمر انه خفف قليلاً من حدته ، فالرجل كان جباراً عاتياً ، يباشرنا بالشر لأقل سبب وأتفهه ، غير أنه لم يكن في شراسة العجوز ، ومع كل فقد كنا جماعة والظلم إذا عم ، ورأى المرء من يأنس اليه في محنته ، سهل عليه احتمال المغارم ، مهما اشتدت وقويت .

مكثت على ذلك شهراً كاملاً ، حتى اذا كنت ذات ليلة ساثراً أجمع أعقاب السجاير ، واستندي الاكف ، وأسرق ما تصل اليه يدي ، كلما وجدت لذلك سبيلاً ، وقد كان يومي مشرقاً ، لأني جمعت فيه ما يقارب الريال ، قابلتني العجوز على حين فجأة ، فانقضت عليَّ انقضاض الأسد على فريسته ، وأمسكت بذراعي ، وأمعنت فيَّ ضرباً ، وهي تهدر وتزمجر وتصيح ، حتى تكأكأ عليَّ المارة ، فأخبرتهم بأني ابنها وقد هربت من دارها على الرغم

من شدة اغتباطها بي، وسهرها على تقويم اعوجاجي، وما فتئت منذ ذلك الوقت وهي تبحث عني وتجد في أثري حتى عثرت عليّ الآن. ثم أمرت بيدها على جيبي، عندما طرق سمعها رنين النقود، وهي تجذبني وتدفعني، فأخذت حصيلة اليوم كلها ودستها في عبها، وجرتني من ذراعي، وهي توسعني ركلاً برجلها كلما تباطأت في السير، وأنا لا أجرؤ على الممانعة، حتى وصلنا الى غرفتها الكائنة في سفح تلول زينهم البعيدة عن العمران، فطرحتني أرضاً وقبضت على عصا غليظة، وهي تقول بفرح وحشي: « الحمد لله الذي مكنني منك، فلن تفلت بعد الآن من يدي » وما رحت تضربني وأنا أصيح وأستغيث حتى شفت غليلها مني.

نمت نوماً متقطعاً تساوره الاحلام المخيفة، وأفقت في منتصف الليل وحاولت اختراق حجب الظلام ببصري، لأتبين مكان العجوز لكني لم أستطع، غير إني سمعت غطيطاً متسقاً، فأيقنت منه بأن العجوز نائمة، وعزمت على الهرب لأني أعلم بأن باب الحجرة لا قفل له، ولا يغلق بإحكام، فإذا ما فتحته بتؤدة لن يسمع له صرير. فسرت على أطراف أصابعي، محاذراً الاتيان بحركة حتى وصلت إلى الباب، فألفيت العجوز ممددة عرضاً على عتبته لتحول بيني وبين الخروج، فنكصت على عقبي، ولزمت مكاني، وأنا حائر في أمري، لا أدري ماذا أعمل.

وبينما أنا أتردد بين الإقدام والإحجام فتح الباب بحذر، وبدا منه شعاع تام صوب إلى أنحاء الغرفة حتى استقر عليّ، فانتصبت واقفاً، وأسرعت إلى مصدره متوسماً فيه الفرج، فقبضت يد قوية على ذراعي وسحبتني خارجاً متخطياً العجوز التي أفاقت وأخذت تولول طالبة النجدة، فانقض عليها شخصان وكمما فمها وألقياها على الأرض، وهي تتخبط بين أيديهما محاولة التخلص. فتركتها غير آبه بها ولا مكترث، لما سامتنيه من العذاب، وأسرعت الخطى ممسكاً بيد قائدي الذي شرع يطمئنني، فعرفت فيه أحد الرفاق الكبار الذين يتولون الصغار منا برعايتهم، ليحيطوا منهم أذى مستغليهم.

وفي الحال لحق بنا الاثنان اللذان صرعا العجوز، وأخبراني بأنها لن تزعجني فيما بعد فدب الرعب في قلبي لأني فهمت أنهما قضيا عليها، لكن الشفقة لم تعرف السبيل الى فؤادي لما عانيته من البؤس والشقاء على يديها.

سرت مع الرفاق الكبار الذين نظمهم التعس، وحلت بهم نوازل المكروه، بمقدار ما بلغ إليّ منها لكنهم عندما شبوا، واشتدت سواعدهم، والتمسوا ما يصلحون به حالهم لم تعزب عن فكرهم طفولتهم التعسة المعذبة، ولم ينسوا أشباههم الأطفال الذين يعانون

كل ضروب الرق والعبودية ، فألفوا فيما بينهم تلك الجمعية التي أخذت تسهر على الصبية الصغار وتدافع عنهم ، وتقتص لهم ممن يقسو عليهم ، ويسومهم جوراً وظلماً .

حللتُ في دارهم حيث ألفيتُ عدة أطفال في سني وما فوقه ، فأخبرني أحدهم بأنه رآني عند ما ألقت العجوز القبض عليَّ ، وتبعني حتى علم بمقرِّي فأسرع بنقل أمري إلى الرفاق الكبار الذين سارعوا لانقاذي ، وأنقذوني من مخالب تلك العجوز القاسية .

عدت عندهم إلى سيرتي الأولى ، فكنت أجمع أعقاب السجاير وأبيعها ، وأستجدي ، وأسرق ما أستطيع سرقته ، وفي الليل عند ما أعود إلى مأواي لديهم أدرِّب وسائر الأطفال على نشل حافظات النقود من الجيوب ؛ فإذا أعيانا أمر إنسان ، واستعصت علينا سرقة حافظته ، عمدنا إلى شق جيبه بشفرة واستولينا على ما فيه .

وكانت هذه الطريقة في بدء أمرها ، من أشق شيء عندي ، لأنها تتطلَّب مهارة وخفة يد ، لا يتسنى الحصول عليها إلاَّ بعد مران طويل ، فكان الرفاق الكبار يدرِّبوننا بصبر وجلد بأن يملأوا كأساً ماء ، وينثروا على سطح الماء ورقة طافية ، ويطلبوا منا قطعها بشفرة حادٍّ دون أن تغطس ، أو أن يبتل ظاهرها ، فدأبت على ذلك حتى قتلته مراساً ومعالجة ، ولم يمض عليَّ طويل زمن حتى برعت فيه ، وبزرت سائر رفاقي الأطفال .

كلفت بالنصوصية ، وأولعت بالنشل ، لأن كلاهما يليني ، من جهة ، ما أصبو إليه من مال ، ومن جهة أخرى ، ما يساعدني على الإضرار بالناس ، والانتقام من الإنسانية التي بادأتني بالشر ، حالما تفتقت عيناي لنور هذه الحياة .

وما برح المجتمع يناصبني العداء ، ويصليني حرباً شعواء حتى تأصلت في نفسي كراهية البشر ، فأصبح لا يلذ لي غير مديد الأذى لسواي تشفياً منه وانتقاماً .

وما زلت على هذه الحالة ، وأنا كلما تقدم بي العمر إزداد خبرة ودراية بفنون السرقة وأساليب النشل ، فلم أترك مجهوداً إلاَّ بذلته ، ولا وسعاً إلاَّ استفرغته ، حتى صرت من أكبر اللصوص ، ومن أعظمهم جرأة ، وأوسعهم حيلة ، ولكن ذلك لم يكن ليطفىء جمرة غلي وحقدي ، لأن سرقة المتاع ، وتخفيف عبء الجيوب من المال ، لا يثقلان العواتق ، ولا يصيبان الإنسان في صميمه ، فصحَّ عزمي على مبادرته بالسوء في جسمه وحياته ، ولذا لجأت إلى سفك الدماء ، وإلى القتل بشناعة ووحشية ، فكنت أفتك بالناس وأنا رابط الجأش ، ثابت الجنان ، دون أن يختلج قلبي بأية عاطفة من الحنان ، بل كنت أقبل على ذلك بلذة متناهية ، مستعذباً حشرجة الغير ونزعهم ، مستطيباً آلامهم وعذاباتهم ، منتشياً من منظر دمائهم السائلة التي كانت تنزل على فؤادي برداً وسلاماً ، حتى

كنت أقتل لسبب ولغير سبب ، فاذا ما اشتدّت وطأتي في مكان ، وضجّ أهله مما نزل بهم ، رحلت إلى سواه وأنا أبذر الموت أينما حللت ، حتى أثقل أمري الحكومة ، وعجزت عن إيقافي عند حدي ، ومنع أذاي وشري ، لأني كنت أفلت من الهواء ، لا أعلق في حبالها مهما أحكمت حبكها .

ويتبادر الى الأذهان أن القتلة لا ضمير لهم يبكتهم على منكراتهم وآثامهم ، غير أن هذا خطأ يذهب إليه من يأخذ الأمور على علاتها ، ويقع فيه الذي لا يتعمق في درس العواطف البشرية ، فكنت إذا ما خلوت بنفسي عقب كل جريمة ارتكبتها ، شعرت بضميري الغافي يستيقظ من سباته ، ويعنفني على موبقاتي ومنكراتي ، فكنت أبين له ما حاق بي من الظلم منذ ولادتي حتى وقتي هذا ، منددًا بتصرفات المجتمع معي ، مبررًا فعالي ، محبذًا أعمالي . فكان ضميري يتململ قليلاً لكنه لا يلبث أن يعود إلى سباته .

وما زلت أتنقل من جريمة شنعاء الى أخرى نكراء ، ومن إثم شديد إلى اثم أشد منه وأوقع ، دون أن تتروى نفسي من الدماء المراقة ، بل كانت تتوق دائمًا الى الفتك والقتل حتى إذا سطوت ذات ليلة على دار وجيه وفتكت دون رحمة ولا شفقة بأسرته كلها ، المؤلفة من زوجة وشابين وصبيتين وطفل رضيع ، اعتقلت في المنزل قبل أن أستطيع الافلات لاني ، وايم الحق ، لم أرده ، فقد صفت نفسي الحياة ، وضقت ذرعًا بالوجود ، ورأيت الاستسلام بدون مقاومة ولا ممانعة ، رغبة مني في الرحيل عن هذه الدنيا التي لم أنل منها سوى الشقاء والتعاسة ، ولم أجد فيها طيلة حياتي غير ظلم الانسان لأخيه الانسان .

وقد أقررت للمحقق بكل آثامي ومنكراتي ، ورجوت القضاء الحكم عليّ دون شفقة ولا رحمة ، لأني عشت ولم يعرف قلبي الشفقة ولا الرحمة ...

هذا هو تاريخ حياتي ، المفعم على قصره بالحوادث الجسام .. إن مروّعاته ليست وقفًا عليّ وحدي ، بل هي نفس ما سيصيب كلا من هؤلاء الأطفال ، الذين أبصرناهم حول صندوق النفايات . والذين يملأون شوارع القاهرة وأزقتها وطرقاتها .

إن قلبي يتقطع حسرة عليهم ، لما يخبئه لهم الزمن من الرزايا والخطوب ، وسيكونون جميعًا مثلي حربًا على الانسانية والمجتمع ، طالما أن هناك آباء لا قلوب لهم ، وأمهات تجردن من كل عاطفة حنان على فلذات أكبادهن ، وحكومة لا تبالي بهؤلاء الاطفال ولا تعالج مشكلتهم الحيوية ، وأغنياء لا همّ لهم إلا ملء بطونهم ، وإشباع ملذاتهم .

(عزبة الزيتون) جورج بغوروس